(٢٣)

دورة العبودية
في أولية العابدين
في الإنسان بآحاد الله

حديث الجمعة

٩ رمضان ١٣٨٠ هـ - ٢٤ فبراير ١٩٦١ م

أعوذ بالله معي من الشيطان الرجيم – مني -. وأستغفره من عزلة وجودي. وأشهده فيما أشهد لا موجود بحق غيره. وأومن به في إحساسي ووعيي، وأسترضيه برحمته وافتقاري، وأخشاه بعدله وقدرته، وأوحده بعلمه وحكمته.. لا إليه من هو غيره.. ولا موجود إلا من هو منه.. من وراء الكل محيط، وعلى نفوس الكل قائم.. عمت رحمته عموم قدرته.. لا إله غيره ولا معبود سواه - لا إله إلا الله.

وأشهد أن العبودية فيه، في العبودية له بعين العبودية لعباده بوحدانيته، بالإنسان يظهر، وبالإنسان يفعل، وبالإنسان للتدريك يتصف، وعن الإنسان بالعظمة يتنزه. في العبودية له شرف الظهور منه، وفي العبودية به شرف العمل بقدرته، عبده إنسانه، وإنسانه عبده. لا حقيقة إلا بالإنسان ولا إنسان إلا بالحقيقة. إذا ذكرت الحقيقة غيبا وإحاطة، كان الله غيبا، وتعالى الله عما يصفون وصفا، وإذا ذكرت الحقيقة شهادة، وأدرك المشاهد مشهودا، كان الله ظاهرا ظهورا ووجودا.. أينما تولوا فثم وجهه.. وكيفما تتأملوا فقد ظهر سلطانه وحكمه.. وكلما تعلمتم لتعلموا ظهرت حكمته.. وكلما مُكِّنتم أو عجزتم فقد بدت قدرته. بدت قدرته في المؤمن بتقديره بقدرة ربه، وقد تخلى عن قدرة نفسه. إن قدرة الله تظهر بكونه وعبده، فهما مظهر قدرته على مراده، تقوم فيمن لم يرَ لنفسه قدرة مستقلة عن قدرة ربه.. أما من رأى القدرة لله والضعف له، فتخلى عن تدبيره، ووكل إلى الله أمره، فعل الله به ما شاء الله، فعل الله به بما هو له أهل بحكمته وقدرته فأدرك العبد في فعل الرب به أعماق ضعفه، ومعارج مسكنته، فكانت العزة في الذل له، والقدرة في الضعف معه، والتدبير في ترك الأمر له.

خلق الله الإنسان في مراحل وأطوار وهو يعلم ما توسوس به نفسه، فهو الذي خلق فيه وسوسة نفسه، وجعل من وسوسة نفسه سورا وحجابا عما وراء نفسه من معية ربه له.. فكانت وسوسة نفسه سورا مضروبا بينه وبين حقه من معيته.. ظاهره من قبله العذاب وباطنه من قبله الرحمة.. حتى إذا نفخ في هذا السور باسم الله فتبدد واجتمع ما وراءه على ما أمامه، اجتمعت النفس بما بين يديها من عملها على معيتها من الحق بربها من ورائها محيطا بها، فزالت وسوستها، وقتلت وساوسها، فقلبت أوضاعها وانقلب في الوجود أمرها فصحت أنانيتها من أنانية للشيطان إلى أنانية للرحمن.. وصح لها أن توصف بالإنسان، وأن تتصف بالعبودية للرحمن، وأن تكون وجها للجلال والإكرام، وقربا للبعيد المتعال، القائم على كل نفس قريبا، بعيدا في المنال.

إن الناس يضعون بوساوسهم وبأوهامهم وبخيالاتهم وبجرأتهم على الحق، وعلى كلام الحق، وهدي الحق، ورسول الحق، وعبد الحق، وعين الحق.. يضعون بينهم وبين الحق من الله - وهو معهم - الأسوار والحجب. يظاهرونه وهم يستقبلون قبلة أنفسهم من أوهامهم وخيالاتهم. يتجاهلون الساعة وهم فيها يكاد يخفيها، وما أخفاها على من خشيه، وما أخفاها على من رضيه، ولكن الناس لا يسألون عمن خشيه، ولا يبحثون عمن رضيه، ولا ينقبون عمن عبده، لأنهم يرون في أنفسهم عبادا له. وحاشا لله أن يكون العباد فيه والعباد له على مثال مما يقومون فيه من غفلة عن معبود، وإحجام عن مشهود، وتجاهل للذكر الموجود.

هم خلق خلق الله، فما خلقتهم يد الله بعد، ولكن خلقهم عباد لله أحبوا أن يعرفوا أنفسهم، وهم لا يعرفون أنفسهم إلا بقيام معانيهم فيما خلقوا وفيما صنعوا.. الله صانعهم وما صنعوا، والله خالقهم وما خلقوا.. من غيب السموات والأرض.. إنه ما وراء الأرض وظهيرها.. به يقوم، وبه تفعل، وبه تنفعل، وبه تتواجد، وبه تتخلق، وبه تتحقق. به تتعالى وبه تتدانى.. وبه تفنى وبفنائها فيه تبقى، وهو ما وراء السماء كذلك.

يبدل الأرض من الناس، غير الأرض من الناس، ويقلب القلب من الناس، غير القلب من الناس، فيحيي القلب من الناس في الأصل الميت من ذوات الناس، بما أودع في هذه الكينونة، وفي هذا العالم الصغير، من عقل قدسي، خالق مدبر. القلب بيته، والذات كرسيه، والروح عرشه، والنفس قوائمه، والرحمن حقه، والله طلبه وغايته ومعناه في حقيقة وجوده.. لا غيبا يطلب ولكن قياما يرتجى.. تعالى في حقيقته وصفه، وتدانى بحقه ربه.

هذا هو الإنسان الجدير بأن يوصف بمعنى الإنسان، وأن يتصف بوصف الإنسان، وأن يذكر باسم الإنسان. علمه الغيب البيان فبان وأبان. بان به من علمه وأبان به من أحكمه.. وجها ذا جلال.. وقياما

ذا إكرام.. ابنا للإنسان، وحفيدا للإنسان، وجديدا من الإنسان باسم الإنسان وشرف الإنسان، فكان بمعناه أبا للإنسان، وجدا للإنسان، وبقاء للإنسان.

ها أنتم في هذه الأيام وفي هذا الشهر من الزمان تدخلون في سوق للإحسان، وتتشبهون في فترة من الزمان بصفات الرحمن، فتمسكون عن الطعام وتتخلقون بأخلاق الديان، بأخلاق ربكم وحقكم من الله، بأخلاق إنسان قيومكم، وإنسان قيامكم، بإنسان ربوبيتكم، بالقائم على كل نفس من بنيه، بإنسان أديمكم استوفى كلماته، وأبرز الله به آياته، وأمسكته يد قدرته، فكان غيبا في شهود الله من عالمكم، وكان ظهورا في غيب الله من عوالم له.

اذكروا ربكم في أنفسكم. اذكروا إنسان بدئكم.. اذكروا إنسان وجودكم.. اذكروا إنسان حياتكم.. اذكروا إنسان أبوتكم.. اذكروا آدمكم.. اذكروا به رسول الغيب إليكم.. اذكروا بعثه رسول الله لكم.. اشهدوا أن محمدا رسول الله وانبعثوا به في أنفسكم. ما بعث آدم في ذات محمد إلا ليشهد الناس فيه أباهم، في معنى ولدهم وأخيهم، ويشهده الناس في أبنائهم في معنى دوام حياتهم، ودوام وجودهم، على مثاله من أبيه، وعلى بنوته من آدمه، سيدا لولده، وجديدا لذاته، وعبدا لحقيقته.

لقد جاءنا رسول الله بالإنسان في معناه، في أي صورة منا ركبه. من تولاه تتواجد له بيننا مركباته منا موحدة في ذاته، وذاتا مشتتة في أصحابه، وقياما قديما مجددا في أصله وفرعه في دوام جنسه. فيه كانت قضيته هي قضية الناس في الله.. وكانت قضيته هي قضية الله في الناس.. لقد كان إنسانا في قيامه وبعثا لإنسان من قديمه، وأصلا لإنسان في مستديمه يقوم ويتقلب في الساجدين، بدءا من ذات وجوده كما قام وتقلب في الساجدين من النبيين والشهداء والصديقين قياما وذاتا من قديم ذاته في مواصلة وجوده، وجوده.

إن محمدا على ما ظهر بين الناس هو محمد على ما يظهر للناس، هو محمد على ما كان في الناس من الناس. والناس هم الناس، ومحمد هو محمد. محمد ثمرة الناس واصطفاء الله من الناس، وصفوة الكمال إلى الناس من الناس.. ومحمد هو أصل الناس، وآدم الناس، وآدم كل الأجناس، فهو صفوة الناس، وفرع الناس، وأصل الناس، وكل الناس. من عرف محمدا فقد عرف نفسه. ومن عرف نفسه في محمد فقد عرف ربه. ومن عرف محمدا في معناه فقد عرف الله. هل آن لنا أن نعرف محمدا؟ هل آن لنا أن نعرف أنه الحق من الله؟! هل آن لنا أن نعرف أنه الرب من الإنسان؟! هل آن لنا أن نعرف أنه الحساب والعقاب من الديان؟ ما حيا من فقده، ولا موت لمن كسبه، وقد هلك من حاسبه. هل آن لنا أن نعرف أنه نور الحياة، ونور الكتاب، ونور البعث، ونور القيام، ونور العلم، ونور الحرية، ونور الانتشار، ونور العتق، ونور التحرر، ونور السعادة، ونور السكينة، ونور الرضا، ونور الوحدانية؟!

هل عرفه الناس؟ هل عرفه أصحابه؟ هل عرفه أتباعهم؟! هل عرفناه متابعين؟ هل عرفناه بالرسالة له شاهدين؟ أبيقين.. أبإيمان.. أبتسليم.. أبتصديق.. نشهده رسول الله؟! ونحن نغيبه معنىً، وطريقا، وكتابا، وذاتا، وبيتا، ومثالا، ووجودا، وحقا.

جعل للناس أسوة فما تأسى به الناس، ولكنهم عن أنفسهم أبعدوه باسم الإكبار له فضيقوه وهو الواسع فكانوا له الصديق الجاهل. وجعل للناس في دوام بتكاثر معناه، حفظ فيه الذكر، وقام في دوام به الأمر، ويسر وانبلج به الفجر، وانقشع به الظلام، ووهب به الدفء، وبعثت به الحياة، ولكنه أصبح أسطورة من أساطير الحياة، لا تختلف أسطورته عن خوفو وخفرع ومنقرع عند قومه.. يذهبون إلى بلاده التي أبرزته ومن أرضها أظهرته سواحا متفرجين.. كما يأتي الأمريكان أو الفرنسيس أو الإنجليز أو غيرهم إلى أرض الفراعنة ليشهدوا أهرامات الفراعنة سواحا متفرجين.. بل قد يكون هؤلاء السائحون أصدق في حجيجهم، وأحرص على الكسب في رحلتهم لأنهم يقرأون عن الفراعنة مكبرين، ويتتبعون حضارتهم خاشعين، ويتذاكرون عظمة الإنسان متأملين، ولكن سواح الرسول يذهبون بعقول مغلفة، وبآذان مغلقة، وبأبصار مقفلة، فيعودون كما ذهبوا، لا متأملين ولا متدبرين، ولا باحثين، ولا مقدرين، ولا واعين.. يعودون من حجهم بوهمهم غارقين.. ولو حجوا لعادوا بالله ورسوله في أنفسهم مدركين. ولكنهم ما ذهبوا عاشقين، ولا متذكرين، ولا متأملين، ولا خاشعين، فهم على مكانتهم يمسخون وعلى حقهم معهم لا يمسحون.

هذا ما آل إليه أمر الدين.. ها نحن في رمضان نحتفل بهذا الشهر من أشهر العام، ونحرص على الإمساك عن الطعام ونرى في ذلك كفاية عن معاني القيام في الصيام. نمسك عن الطعام جزءا من اليوم نتهيأ في ختامه ونتحضر لابتدائه بشهوات الطعام في السحور والإفطار، ونقلب وضعه من شهر صيام لشهر طعام، فنذهب بفضله ونضيع حكمته. ولو أنا انتفعنا بهذا الشهر على ما رسم لنا لخرجنا منه بحصيلة لا يستهان بها، وتخلصنا من صفات لا بأس بقسطنا من التخلص منها.. ولكننا نسمع فقهاءنا يعدوننا وما يعدوننا إلا ضلالا، ويبصروننا، وما يبصروننا إلا بهتانا وخيالا، لأنه لم يلمسهم من الله كلام، ولم يقمهم في الله صيام. وما الصيام وما القيام وما الدين إلا ما رسم لنا الله في أن نكون مع محمد ولمحمد، وأهلا لمحمد، وفي بيت لمحمد، وفي وصلة بمحمد، وفي تسليم لمحمد، نستقبل سكينة من محمد هي سكينة من الله.

إن الدين كله يدور حول محمد. إن محمدا هو مؤسس دين الإسلام ومؤسس دين الفطرة الذي كشف الله به لنا عن وجهه الكريم من وراء الكل، ومن وراء كل شيء محيط، وعن يده الممتدة بكرمه في عباده، وعن نفسه المتجددة الدائمة في دوام خلقه، وعن نفسه المنتشرة باستحالة غيره،

وعن وجهه المقصود لمرايا القلوب، وعن صفاته لا تتعطل، ولا تنتهي، ولا تبدأ، ولا تخفى، ولا تنقص.

إن الدين يدور حول الإنسان، وفهم الإنسان، ومعنى الإنسان، وقيام الإنسان، وقيوم الإنسان على قائم الإنسان بإحسان في قديمه لا بدء له، وفي جديده لا انتهاء له، وفي حاضره لا غيب ولا انقطاع له.

في هذه الكلمات القصار كان الدين في معرفة الإنسان، وكان الإنسان في معرفة الدين.. في هذا تقوم حقائق الأديان، كما تقوم حقائق الديان، فيعرف الإنسان حقائق الإنسان. وبعيدا عن هذا لا يكون إلا الضلال والزور والبهتان. فهل جعلنا من هذا الموسم.. من هذه السوق للرحمة والإحسان بشهر الصيام فرصة لأن نتحدث، ونتواصى بالحق، ونتواصى بالصبر في الله قائما علينا.. قائما بنا.. ظاهرا في بقائنا به، لا إله غيره ولا معبود سواه، محمد عبده ورسوله، ومحمد وجهه وحقه؟ نسأل الله لنا ولكم التوبة والمغفرة.

أسأل الله لي ولكم أن يحونا عنا إلى محمد فيه، وأن يعبدنا لعبده فيه، وأن يقيمنا بعبده منه، وأن يحيي قلوبنا به وعقولنا بنوره، وأن يقوّم جوارحنا باقتدائه، وأن يجعل نعمته في نزول سكينته على قلوبنا، وأن يجعل قيامتنا في قيام رحمته بنا ربا غفورا راحما لا يدين أبدا.

ونسأل الله ببركته أن يجنبنا الفرقة والخصام، وأن يرزقنا الألفة والوئام، وأن ينزل على أرضنا وأنانينا وبشريتنا الأمن والسلام، وأن يعلي كلمة الحق فينا، وأن يعلي كلمة الحق علينا، وأن يعلي كلمة الحق بنا، وأن يولي أمورنا خيارنا، ولا يولي أمورنا شرارنا بسوء عملنا وبعدله فينا، وأن ينصرنا على أنفسنا.. حكاما ومحكومين، روادا ومرودين، يقظين وغافلين، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائه في أنفسنا لا إله غيره ولا معبود سواه.